صاحبي البدوي.. رجُلٌ سياسي

حسين بن محمود

صاحبي البدوي، رجلٌ أُمّي، أسَنُّ رجال القبيلة، قسمات وجهه تحكي قصص التجارب الطويلة.. رأيته يوماً على عتبة بابه وقد بدى وجهه النحيل شاحباً خلف جلبابه.. سلّمتُ عليه، فردّ عليّ بصوت خافتٍ على غير عادته مع أحبابه!!

قلتُ: خيراً إنشاء الله!! ما الذي دهاك يا عبدالله؟

قال (بصوتٍ كاد أن يحجبه الهواء، وقد أطلق ببصره إلى السماء): سمعتُ ابني الصغير يقول: بأن الكفار النصارى غزو بلاد المسلمين، فأصابني الذُّهول!!

قلتُ: تقصد أمريكا!!

قال: أظنها هي!! يا ولدي، أنت تعلم جهلي في السياسة.. حدثني عن هذه الحرب كيف بدأت، ومتى، وأين، ولم.. فأنت من ختم الدراسة!!

قلت: على رِسلك، سأخبرك بكل ما تريد.

قال: إذاً هات ما عندك يا أيها الرجل الرشيد.

قلت: بدأت الحرب منذ خمسة أشهر حين انفجر مبنيين تجاريين في أمريكا .

قال: ومن الذي فجر المبنيين في أمريكا؟

قلت: الله أعلم، ولكن أمريكا تتهم المسلمين بتفجير المباني.

قال: يا بني، وهل عندهم ما يثبت ذلك من البُرهانِ.

قلت: لا!!

قال (وقد بدت في وجهه علامة الغضَب): إذاً، لماذا يقتلون المسلمين دون سبب؟

قلت: يا عم، هذه سياسة!!

قال (وقد هدأت نفسه، والتقط أنفاسه): يا ولدي، أنا لا أفهم في السياسة، ولكن أخبرني: أي البلاد غَزو؟

قلت: بلاد الأفغان .

فقال مستبشراً: وما فعل اخواننا البَتَان!!

قلت: بعضهم يقاتل الأمريكان، وبعضهم مع الأمريكان، وأكثرهم مغلوب على أمره لا يُؤويه مكان.

فقال مندهشاً: يا بني، وكيف يكون المسلم بفهمه مع الكفار الأمريكان ضد بني قومه!!

قلت: يا عم هذه سياسة!!

قال (وقد هدأت نفسه، وانتظمت أنفاسه): أنا لا أفهم في السياسة، ولكن سمعت ابني الصغير يتغنّى من خلف هذا الجدار: ان رجل من الجزيرة يقال له "ابن مازن" سوف ينتصر على الكفار.

قلت: تقصد ابن لادن!!

قال: هو، فما شأنه!!

قلت: هذا ابن باني المساجد الثلاثة، حارب ضد السوفييت مع الأفغان، والآن يحارب ضد الأمريكان.

قال (وقد علت على وجهه ابتسامة): أكرم به وأنعم، هذا والله للعُربِ شامة.. وما فعل بنو قومه، هل أمدوه بالرجال والسلاح من يومه!!

قلتُ: لا .

فردّ مغضباً: وكيف لا؟!!

قلتُ: سياسة.

فقال (وقد هدأت نفسه، وسكنت جوارحه): يا بني، أنا لا أفهم في السياسة، ولكن أخبرني: هل اعتدى الكفار على دولة غير أفغانستان!!

قلتُ: يقاتلون المسلمين في الفلبين!!

قال: وما الفلبين!!

قلتُ: دولة نصرانية، عاصمتها مانيلا، في جنوب الصين.

فقال (بعد أن سكت هُنيّة): أمان الله!!

قلت: نعم، وقد تغير اسمها من زمان.

فاسترْجع استرجاعة مريرة، وقال: إيْهٍ يا بني، لقد تغيرت أشياء كثيرة.. ثم نظر إلي نظرة المُشفق الحيران، وسألني: وهل هناك بلدة أخرى غزتها أمريكا من البُلدان!!

قلتُ: هدد الأمريكان دولة إيران .

قال: وما فعلت إيران!!

قلتُ: هددت بضرب حقول النفط من الكويت إلى عُمان .

قال (وقد كاد عقله يطير): تقول لي بأن الكفار إذا ضربوا إيران فإنهم يضربون اخوانهم انتقاماً من ضرب الكفار لهم، هذا كلامٌ خطير!!

قلتُ: يا عم، هذه..هذه..... سياسة .

قال (وقد هدأت نفسه، واستقرت مُقلته): يا بني أنا لا أفهم في السياسة.. ولكن أخبرني: ما فعل باقي أهل المِلّة.
قلت: الشعوب مغلوب على أمرها، وكُل ما تُريده مُكتنزٌ في صدرها!!
شهق الشيخ شهقة طويلة، ثم قال: لا حول ولا قوة إلا بالله رب العالمين، لعلهم مثلي ليست لهم في السياسة حيلة.. ثم التفت إلي بسرعة، وقال: وماذا عن حكومات بلاد المسلمين!!
قلتُ: كلها وقفت مع أمريكا.
فقال مُغضباً: وقفت مع العدو ضد اخوانهم في الدين!!
قلتُ (وبصوتٍ يعلوه الخجل): نعم يا عم، هذا ما حصل.
قال (وقد برزت عيناه): أيجوز هذا في شرع الله!!
قلتُ: لا، ولكن.. ولكن.. هذه..... سياسة!!
قال (بهدوء الشيخ الرزين، وثقة من صقلته السنين): يا بني: لقد كان أبي وجدّي يَعُدُّون هذه الأفعال من النَّــيَاسة.
وقفتُ على رجلِي، والتفتُّ حوْلي، ثم نظرت إلى صاحبي البدوي، وقد بدى المَستورُ جليّ، فرجعت خطوات إلى الوراء، وقلتُ له قولاً ليس بالمراء: لقد خدعتني أيها البدوي، وما أراك إلا موقعاً بيّ.. إن تصريحك بمثل هذا الكلام، دليلٌ على غزير علمِكَ بالسياسة..... والسلام!!